# قلق الشباب العربي المعاصر

بقلم حافظ الجمالي

لعلني استطيع القول بأن كل الشباب العربي ، في كل اجزاء الوطن ، انما يصدق عليه هذا الذي سأقوله الآن ، ولو بدرجات متفاوتة . بل لعله سيتجاوز دائرة الشباب العربي ، ليصدق على شباب الارض جميعاً . أو لسنا في عصر اصبحت فيه الأزمة عامة ، والمشا كل واحدة ، وأصبح لكل قضية تثار هنا او هنـــاك وجه دولي او عالمي ؟ أولايتحدث الفلاسفة والمفكرون والاخلاقيون عن وجود ازمة عالمية ، ليست هي أزمة هذا الشعب أو ذاك ، بل هي أزمة الناس جميعاً ؟ أولايرى بعضهم ان هذه الأزمة إنما تنشأ عـــن مستويين إنسانيين ، اختلفا في التطور ، فسبق احدهما الآخر . وهم يريدون بذلك ان الإنسان صار كالإله قوة ، ولكنه لا يزال كالشيطان ضميراً ؟ فاذا تحدثت الآن عن قلق الشباب العربي المعاصر ، فما أتحدث إلا عن صورة جزئية من صور أزمة عالمية شاملة ، لن يكون لها في جميع صورها إلا حل واحد .

ولكن ما هو هذا القلق الذي يريد التحدث عنه ، وما هي مظاهره البارزة ، وما هي أسبابه ، وكيف السبيل الى علاجه ؟ إن هذه النقاط الثلاث هي التي نريد البحث فيها . ولعلنا بالغون من ذلك شيئاً يستطيع ان يثير اهتمام رجال الفكر في الوطن العربي ، ويحدوهم إلى التعاون على تناول هذه المشكلة بالبحث والدرس ، لعلهم يساعدون هذا الجيل القلق على تحديد مصيره ، وبلوغ شيء من الاطمئنان في حياته .

أذكر انني عدت مرة الى البيت ، في ساعة متأخرة من الليل . وكانت الساعة بين الموهن وبين الواحدة . فوجدت بائعاً متجولا ، يبيع الفاكهة على عربته المتنقلة . وكنت في الشارع وحيداً ، وليس فيه غيري وغير هذا البائع فمررت به عجلان ، ابتغي الوصول الى البيت . ولست ادري لماذا أثر بي منظر هذا البائع الساهر ، فعدت اليه ، واشتريت بعض ما عنده من الفاكهة ، من غير ما حاجة بي اليها . إلا أنني قصدت ان ابث في نفسه بعض التفاؤل ، وأعينه على ان لا يقنط من رحمة الله .

وعرفت ايضاً رجالا هم باعة في الحوانيت يفتحون ابوابها في الساعة السادسة صباحاً ، ويغلقونها في التاسعة مساء ، وربما بعد ذلك ايضاً . وكنت أسألهم بمرة كيف يطيقون كل هذا الجهد ، ويصبرون كل هذا الصبر ، وجعلت أقابل لهم بين وضعهم ووضع الباعة في فرنسا ، هؤلاء الباعة الذين يفتحون في الثامنة ، ويغلقون عند الظهر ، ولا يعودون إلا في الثانية او الثالثة ، ثم لا تأتي الساعة السادسة إلا ويكونون قد اغلقوا أبواب حوانيتهم ، وباتوا يستريحون . عدا عطلة يوم ونصف اليوم في كل اسبوع ، وعدا ثلاثة اسابيع في كل سنة يقضونها متجولين متنزهين . ولقد قال لي واحد من هؤلاء الذين أتحدث اليهم هذا الحديث : انه رزق طفلة صغيرة منذ تسعة أشهر . وهو لم يرها حتى الآن إلا نائمة ، إذ يغادر البيت باكراً وتكون نائمة ، ويعود اليه متأخراً فتكون نائمة ايضاً . وضرورات العمل تحول بينه وبين العودة الى البيت عند الظهر لتناول طعام الغداء ، فيرسل اليه ويأكله في دكانة بعيداً عن اهله واطفاله .

وليس من الصعب الآن أن نجد الباعث على مثل هذا السلوك ، فهو الخوف من الفقر ، أومن العوز ، أو من البؤس . إن هذا الخوف يعمر كل القلوب ، ويستولي على كل النفوس ويجعل الإنسان دائم القلق ، مستمر الإضطراب ، مستديم الهلع . وهذه أول صورة من صور القلق الذي نتحدث عنه ، وهي صورة القلق الحيوي .

وليس صحيحاً أن الطبقة المعذبة وحدها هي التي تشعر بهذا القلق ، وتقاسي آلامه ، ولو أنها هي الوحيدة التي تشعر به باستمرار . ذلك أن الطبقات الأخرى ، ولو كانت شديدة الثراء والغنى ، معرضة دوماً لمثل هذا القلق . وهل يشعر التاجر أنه دوماً في حال تروج فيه بضاعته ، وتربح فيـــه تجارته ؟ أولا يحدث أن يمسي غنياً ، وأن يصبح فقيراً ؟ اولا يحدث أيضاً أن تسوء احواله بصور شتى ، فيعرضه ذلك لأشد انواع القلق ، وأقساها على النفس . وهذا الإقطاعي الذي تتركز عليه الآن عواطف كثيرة من الحسد ، والنقمة والكراهية ، ألا يفاجأ بمواسم يقل فيها المطر ، وتكثر فيها الديدان المؤذية ، والحشرات الضارة ، فاذا به يفقد فجأة ما كان يرجو أن يربحه ، وإذا به ينتقل بسرعة البرق من حالة الدعة والاطمئنان ، الى حالة البؤس والقلق والحرمان ؟

إن الناس ، كل الناس ، في حضارة كحضارتنا ، أوقل في هذا النوع السائد من الحضارات منذ خلقت الحضارة حتى الآن ، ما يزالون يعيشون في القلق ، حتى يصح أن نسمي هذه الحضارات كلها ، بأسم واحد ، هو « حضارة القلق » . وعندنا أن الحضارات ليست من هذه الناحية لا زراعية ، ولا صناعية بل هي بالدرجة الأولى حضارات قلق ، أياً كانت أدوات الإنتاج التي تعتمد عليها . ولن يتغير إسم هذه الحضارات ، ما لم ننتقل الى حضارة الإطمئنان . فليست الآلة أو أدوات الإنتاج هي التي يجب أن تهب لهذه الحضارات اسمها ، عندنا ، بل موقف الإنسان فيها هو الذي يجب أن يهب لها اسمها . وستكون قلقة الى الأبد ، ما ظل الإنسان فيها لا يشعر بالإطمئنان على غده ومصيره ، سواء اكانت زراعية أم صناعية . وسوف تكون حضارة اطمئنان أياً كان نوعها ،

إذا استطاع الإنسان التحكم فيها ، والإطمئنان إلى خبزه في ظلها . وبتعبير آخر : ما دامت المادة تتحكم في الإنسان ، الإنسان عبدها ، فاننا في حضارة قلقة ، فاذا جاءاليوم الذي يتاح فيه للإنسان أن يتحكم في المادة ، هو السيد وهي العبد ، فسكون في حضارة الاطمئنان . وطبيعي اننا في بلادنا هنا ، لانشعر بأي اطمئنان على المصير ، وأن الخوف من الغدهواحد العناصر الثابتة في شعورنا الإنساني ، وضميرنا الخلقي .

ولقد يقال : إن القلق ليس بالأمر الذي يرول ، اذا ضمن الإنسان لنفسه الطعام والشراب والمسكن واللباس والدفء ، إذ أن الحياةبطبيعها تشتمل على القلق كعنصر مقوم بين عناصرها وهل يضمن الإنسان أن لا يصيبه المرض ، ثم أن لايفاجئه الموت ؟ لاشك أن مثل هذه الملاحظة صحيحة جداً . فالقلق عنصر ملازم لطبيعة الحياة . ولكننا نفصل هنا بين نوعين من القلق : نوع يمكن التغلب عليه ، والتخلص منه ، ونوع لا سبيل إلى حذفه والقضاء عليه. فاما التغلب على الفقر والحاجة والبؤس ، فأمر يستطيعه الإنسان إذا أراد أن يجعل سلوكه معقولا ، وأما التغلب على الموت ونكبات الطبيعة وزلازلها فأمر لا راد له إلا الله . فاذا كنا نتكلم هنا عن القلق ، فلاشك أننا نعني هذا النوع الذي نستطيع القضاء عليه ، ومع ذلك فاننا نتركه بيننا ضيفاً ثقيلا ومكشراً ، وكثيراً ما نقاوم كل مشروع للقضاء عليه . ولئن كان القدر قد كتب على الإنسان مصيراً قلقاً محزناً ، فيكون من الضروري أن نزيد على صور القلق الطبيعية ، صوراً إخرى نصطنعها اصطناعاً ، ونبتدعها ابتداعاً ؟ أولا يكفينا من ذلك ما لدينا من صنع القدر ، حتى نزيد عليهما اصطنعه البشر ؟ اولا يكفينا المرض والموت ، حتى نزيد عليه الفقر والجوع والبؤس ، أو الخوف الدائم من الفقر والجوع والبؤس ؟

* * *

ومع ذلك فان هذا القلق الحيوي ليس كل شيء فيما يشعر به الناس في بلادنا من القلق ، بل إن هنالك نوعاً آخر من القلق أدهى وأمر ، وهو القلق السياسي ، فوجود الإستعمار في بلادنا ، وحبكه المؤامرات على استقلالنا ، وغرسه إسرائيل في اعز منطقة من بلادنا ، وفرضه الإحتلال والإفناء على المغرب العربي ، وسده الطرق على تقدمنا وتطورنا ، وعبثه المجرم بوجودنا وحرماتنا ، ووقوف حكامنا تجاهه موقف المستضعف المتخاذل ، وتردد الوعي الشعبي في المساهمة الإيجابية في العمل السياسي ، وضآلة الموارد المادية ، والثروات المعنوية عن الإرتقاء إلى مستوى يجابه الأخطار القومية ، كل ذلك يؤدي بطبيعة الحال الى قلق آخر يضاف إلى القلق الحيوي وينشيء وإياه كتلة واحدة من المشاعر المؤلمة .

أما النوع الثالث من أنواع القلق ، فهو النوع الإجتماعي . وهو طبيعي لدى كل قفزة يقفزها التطور الإجتماعي . ومن الواضح أن بلادنا تنتقل بسرعة من عهود الأمية والجهل ، إلى عصر المدرسة والعلم ، ومن عهد الحضارة الزراعية الإبتدائية إلى عصر الحضارة الزراعية الكثيفة والصناعية الكبرى ومن عصر سيادة الرجل إلى عصر تحرر المرأة ، واشتراكها مع الرجل في كثير من مسؤليات الحياة ، ومن عصر العقلية السحرية ، الى عصر الموضوعية والعقل العلمي . ومن العصر الذي لا معنى فيه لاختلاف الآراء والمذاهب ، الى العصر الذي يقتضي هذا الاختلاف . ومن المرحلة التي يمتد فيها القدر حتى يشمل أوضاع المجتمع ، وتقاليده ، وما اصطنعه البشر لأنفسهم من انظمة وقوانين ، الى المرحلة التي تفرق بين القدر الإلهي والقدر البشري ، ومن الوضع الذي يظن معه أن اختلاف الناس في الثروة ، ووجود أكثرية فقيرة بائسة ، أمر أراده الله ، الى الوضع الذي يرى فيه أن ذلك أمر أراده الناس ، ومن الوضع الذي كنا نرى فيه ان من حق الدولة او السلطة ان تفعل ما تشاء ، الى الوضع الذي نرى معه ان ليس للدولة ان تفعل شيئاً غير ما يقرره الشعب . وكل ذلك من شأنه ان يثير قلقاً من نوع خاص تحسب معه فئات كثيرة من الناس ان الزلازل والنكبات الطبيعية انما هي عقاب على سفور المرأة ، وان قلة الأمطار ، وشح السماء ، انما هما عقاب على مادية العلم ، وما يؤدي اليه من التحرر الديني . وإني لأعرف فئة من الناس راعها انتشار الدراجات والسيارات ، وشيوع السينما والملاهي ، وخافت ان يؤدي ذلك الى انحلال المجتمع وفنائه. بل لعلها رأت فوق ذلك أن انتشار هذه الأمور كلها ، إنما هو من علامات الساعة . فكأن المجتمع الذي يتطور على هذه الصورة . إنما يتطور مادياً ، دون ان يتطور معنوياً ، وكأن نقص المفاهيم المعنوية التي تملك زمام هذا التطور المادي ، مما يجعل الانسان قلقاً بالضرورة .

أضف الى ذلك ان الناس يختلفون في سبل الإصلاح اختلافاً كبيراً ، فيراه بعضهم في الرجوع الى الدين ، ويراه الآخرون في الأخذ بفلسفة مادية بحتة ، ويراه غيرهم في سبل بين بين ، مما يجعل الانسان العادي في حيرة من أمره ، لا يدري اي سبيل يتبع ، ولا عن اي سبيل يمتنع . ولقد يضاف الى ذلك طغيان الطبع الفردي الذي يعزف بالعربي عن اية مشاركة جدية في الأمر العام ، وغلبة الايكوسنترية العقلية التي يحسب معها الإنسان ان ما يراه هو وحده ، هو الحق المنزل ، وان كل ما يراه الآخرون خطأ محض ، ولو لم يكن بين رأيه ورأي الآخرين إلا فروق قليلة جداً .

غير ان ابرز عوامل القلق في رأينا هو ما يلاحظه الإنسان من فرق بين مستوى حضارتنا ، وبين مستوى الحضارة الغربية : فنحن ضعفاء والغربيون اقوياء . ونحن في حالة جهل وامية لا نكاد نرتفع عنها إلا قليلا ، والغربيون

متعلمون وعلماء . ونحن مقلدون وهم مبدعون ، ونحن تبع ، وهم السادة ، وهم يتصرفون كما يشاءون بأمورهم وأمورنا ، ونحن لا نملك حتى حق التصرف بأمورنا وحدها . ونحن نبحث في جواز او عدم جواز السينما ، وهم يبحثون في مشاكل الطاقة الذرية كيف يستخدمونها في مسائل السلم والحرب . ولقد فتح كل منا عينيه على الحياة ، فلم يجد بلداً عربياً واحداً مستقلا ، ووجد ان المستعمرين هم الغربيون . وكل ذلك قد جعل الكثيرين يحسبون ان التخلف من طبيعتنا ، وأن التفوق من طبيعتهم . ولقد كدنا نظن ان هذه القناعة قد ساورت عقول الناس جميعاً . فلما استيقظ وعينا قليلا ، وعدنا الى تاريخنا ، ألقي في روعنا إن تخلفنا ليس طبيعياً فعلا ؛ وأن مواهبنا قد لا تكون اقل مما لدى الآخرين . وقد تكون أقوى مما لديهم وأعظم .. إلا اننا مع ذلك لا نسرع الخطى في اللحاق بهم ونتشاغل عن التقدم بما هو في الواقع من توافه الأمور . وهكذا نجد فئات كثيرة ما تزال تتردد في التعرف الى حقيقة ذاتها وطبيعة وجودها ، فلا نحن بمستقرين على القناعة بأن الغرب بالفطرة افضل منا ، ولا نحن بمقتنعين فعلا اننا نوازيه في الكفاءة والمواهب العقلية . وهذا سبب آخر من أسباب القلق الهامة . ولعله من اكبرها وأخطرها شأناً .

أضف الى ذلك كله ان مجتمعنا معقد التركيب بطوائفه المختلفة ، ومذاهبه المتعددة . ولقد خيمت عصور الجهل والانحطاط علينا مدة كدنا معها ان ننسى وحدتنا العرقية والثقافية ، لننحدر الى التفرق الطائفي والمذهبي . ومن الامور الكثيرة الدلالة ان يكون في سوريا ولبنان التي لا يتجاوز عدد سكانها الأربعة ملايين تسعة عشر مذهباً دينياً . وأن يكون المذهب الكاثوليكي سائداً في تسعة وثلاثين مليوناً من اصل اربعين ، هم كل سكان البلاد الفرنسية .

والخلاصة ان القلق الذي نعانيه أو يعانيه الشباب العربي المعاصر هو قلق مستمر متنوع الصور ، مختلف الجوانب ، معقد الوجوه . وهو قلق حيوي من ناحية أولى ، ينشأ من الخوف الدائم من الفقر ، والحذر المستمر من البؤس ، وقيام الحياة الإقتصادية على أساس الحرية في العمل والكسب . وهو قلق سياسي من ناحية ثانية ، ينشأ عن تآمر الإستعمار علينا ، وغرسه اسرائيل في ارضنا ، وتهالكه على عرقلة تقدمنا ، وتأخير وحدتنا . وهو قلق اجتماعي ، من ناحية ثالثة ، مبعثه هذا التطور السريع في المجتمع الذي يقلق الوجدان التقليدي ويجعله يظن أننا نتطور في اتجاه مؤذ لفضائلنا ، وجارح لمعتقداتنا من جهة اولى ، وتخلف حضارتنا عن الركب العالمي ، من ناحية ثانية . وهو كذلك قلق اتنولوجي ، ينشأ عن كثرة الطوائف ، وعدم وجود أكثرية قوية ، متجانسة التفكير ، والمستوى الثقافي ، والمصالح . وكل هذه الأنواع من القلق انما تعيش في جو اجتماعي يغرق أفراده في التمسك بفرديتهم ، والحرص على ايكو سنتريتهم .

* * *

ولا شك أن أسباب القلق هذه قديمة الوجود في مجتمعنا ، إلا أن القلق الذي نعانيه جديد . فلقد كان الناس دوماً أغنياء وفقراء ، وكانت الحياة الإقتصادية دوماً إقطاعية أو رأسمالية . وتخلف حضارتنا عن الركب العالمي منذ أربعة قرون على الأقل ولم نكن في مثل هذا القلق إلا منذ عهد جديد جداً . ومرد ذلك فيما نرى إلى نمو الوعي ، وازدياد الإحتكاك بالحضارة الغربية ، وتغير المفاهيم الإجتماعية . فلم يعد يبدو لنا الآن طبيعياً ما كان أجدادنا يرونه كذلك ، ولم نعد نقبل الآن بسهولة ، ما كان الناس يقبلونه من قبل . وأصبحنا نعرف أن جزءاً كبيراً من مصيرنا ، إنما هو من فعل إرادتنا ، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وهكذا تهدمت لدينا القناعات التقليدية وساورنا الشك فيما لدينا من المؤسسات الإجتماعية ، وأصبحنا نعرف أن في وسع العقل والعلم أن ينظما حياتنا على أساس آخر ، أعود علينا بالخير ، وارضى لنفوسنا وضمائرنا .

**« ان القلق الذي نحن فيه دليل على حيوية الشعب وتفتحه . وهو قلق خصب ما دام سبيلاً الى الحلول الصالحة ... »**

ولكن الحياة لا تستقر على القلق ، كما لا يستطيع العقل أن يستقر على التناقض . ولا بد للإنسان من أن يريح عن نفسه القلق بأية صورة يستطيع : فاما أن نقبل واقعنا قبولاً تاماً ، ونعتبر أنه الأمر الذي لا سبيل إلى قلبه أو تغييره ، وإما أن نثور عليه ، ونعيد تنظيمه ، طبقاً لنظم جديدة نؤمن بها . غير أن القلق الذي نعانيه أكبر من أن يتناسى ، وأعظم من أن يذهل عنه . فلا بد إذن من الإستقرار على عقيدة جديدة يرى العقل أنها سبيل الخلاص ، وترى النفس فيها الراحة والأمن والهدوء . فأين تكون إذن هذه العقيدة ؟

لقد رسمنا صورة لقلق الشباب العربي المعاصر . ووجدنا أنها الصورة النفسية لوضع اجتماعي فقير ، بائس متخلف ، تكالب عدوان الإستعمار عليه . ولو أن القضية كلها ، إنما تنحصر في كون مجتمعنا متخلفاً . وكون المجتمع الغربي سابقاً متقدماً ،

لهان حلها ، وتضاءل خطرها . إذ يكفي عندئذ أن نسرع الخطى ، ونحث السير ، ونزيد البعثات العلمية ، ونصنع المرافق الزراعية والصناعية ، لنلحق بالركب العالمي ، فنكتسب الصحة بعد المرض ، والتقدم بعد التأخر ، والقوة بعدالضعف والثروة بعد الفقر ، ولكن القضية أعقد من ذلك ، وأشد تركيباً . فالمجتمع الغربي ليس سليما حقاً ، حتى نطلب مجرد اللحاق به ، وتتبع خطاه . بل هو مريض فعلا ، وهو يعاني أزمة قلق أكبر من أزمتنا وأدهى ، فاين إذن هذه الأزمة ؟

* * *

لاشك أن في المجتمع الغربي عناصر قوية لايجوز تجاهلها . وهذه العناصر أربعة هي العلم ، والصناعة ، والتفكير الوضعي ، والروح الإجتماعية . فبالعلم استطاع أن يقضي نهائياً على عالم السحر ، والخرافة ، والأسطورة ، والتدجيل ، ووضع بدلاً منه عالماً من الأسباب والقوانين ، يطمئن له العقل ويطمئن به . وبالصناعة القائمة على هذا العلم استطاع أن يزيد قدرته على الإنتاج ، ويضاعف ثرواته الطبيعية ، وينمي رفاهية أبنائه . وبالتفكير الوضعي استطاع أن يعد المشاريع الكبرى الطويلة الأجل ، خدمة للأغراض التي يبتغيها ، كما استطاع أن يسيطر على الطبيعة باكتشاف قوانينها . وبالروح الإجتماعية استطاع أن ينشئ دولا مستقرة ، تمضي عليها القرون بعد القرون دون أن تقوم فيها ثورة ، أو يظهر فيها انقسام ، أو يبدو فيها تصدع وبهذه الروح الإجتماعية نفسها استطاع أن ينظم حياته في الداخل فيقسمها بين العمل والراحة ، وبين الأنانية والغيرة . ولهذا كانت الحياة في المجتمع الغربي أرفه منها بكثير في المجتمع الذي نحن فيه . بل إنك لتجد المفاهيم الخلقية أرقى بكثير منها عندنا ، فأنت تشتري بدون مساومة ، وتبيع من غير غش ، وتترك ثمار بساتينك مدلاة على الشارع ، فلا يعتدي لك عليها أحد ، وتقول ما تشاء وتكتب ما تريد فتجد من يرد عليك ، أو يناقشك الحساب ، ولكنك لاتجد من يثير عليك أية ضجة أو يهدر دمك ، أو يطلب لمعدامك .

أما في بلادنا فالعلم والصناعة مازالا مستعارين : غيرنا ينتجها ، ونحن نستهلك ماينتج . وأما التفكير الوضعي فمازال عنا بعيداً ، إذ مانزال في عقلية تؤمن إلى حد غير قليل بالسحر والخرافة والأسطورة ، وترى في الزلازل عقاباً على الفساد . وأما الروح الإجتماعية فمفقودة إلى حد كبير ، وحسبك أن تحاول إحصاء الثورات التي قامت ، خلال مئة سنة من القرون الخمسة الأولى التي كانت بداية التاريخ الإسلامي ، لتجد اننا شعب ثوروي من نوع ممتاز ، وأن فرديتنا الطاغية تأبى أي استقرار . وحتى الأخلاق التي نحسب دوماً أنها عندنا أنبل بكثير منها عند الغربيين ، فانها ، إذا استثنيت حرصنا على العفة الجنسية ، ليست حيث نظنها من النبل . وهل منا من يضمن إذا اشترى أن لايغش أو أن يبيع من غير أن يساوم ، أو يأمن على حديقة بيته أن لايقفز فوق جدرانها من يريد الظفر بثمارها ؟

إن كل ذلك صحيح جداً ، ولولا هذا التناقض بين مجتمعنا والمجتمع الغربي ، لما كان هذا قوياً ، ولما كنا نحن ضعفاء . إلا أن المجتمع الغربي ما يزال ضعيفاً ، منحطاً من نواح كثيرة أخرى .

فالنظام الإقتصادي لديه شبيه بنظامنا نحن ، ولو أن الضمانات العمالية فيه الآن أكبر بكثير منها عندنا . فألعالم الرأسمالي ، لا يستطيع أن يقوم إلا على انقسام الطبقات إلى أقلية مرفهة جداً ، وأكثرية فقيرة أو محرومة .

أما النظام الإجتماعي ، فانه يهدد كل يوم بالإنفجار . وهو ينفجر بالاستعمار لينظم الأمم الأخرى ، كما ينفجر بالحروب التي تهدد وجود الحضارة كلها .

وكل من يقرأ تاريخ الإستعمار ، ويرى كيف عزلت هذه


# مؤلفات عسكرية

- **رسالة في الرئاسة والرئيس** للزعيم مونتانيوف
- **الجيش المحترف** للجنرال ديغول
- **الجيش الفرنسي** للويس الحاج

ويشتمل كتاب **الجيش الفرنسي** على فصول تبرز بطولة الجنود المغاربة الذين حاربوا في صفوف الجيش الفرنسي وقاموا باعمال باهرة وهومزين بـ ١١٠ صور تاريخية

صدرت هذه الكتب عن **دار المكشوف** – بيروت

الكتل البشرية الهائلة في آسيا وأفريقيا من عالم الحضارة ، وكيف قام الغرب بعملية واسعة لإفنائها من الوجود ، على مثال مانرى الآن في الجزائر والمغرب العربي كله ، يقدر فظاعة الجريمة التي ارتكبها الغرب بحق الإنسانية جمعاء .

أما الحروب التي تثور بين المجتمعات الغربية ، وتذهب في أقل من ثلاثين سنة بأرواح ما يزيد عن ثلاثين مليوناً من البشر ، وبثروات قدر ما أنفق في الحرب العالمية الأولى منهابما يكفي لإسعاد البشرية جمعاء ، فانها تكفي دليلا على وجود ضعف كبير في الحضارة الغربية .

وعلى ذلك فان مشاكلنا ومشاكل الغرب متشابهة بالرغم من اختلافها ، وقضايانا وقضاياه واحدة بالرغم من تناقضها ، وكأن القلق الذي نعانيه من وضع أمتنا ليس إلا جزءاً صغيراً من قلق الإنسانية بمجموعها . وهل ما نحن فيه أولا وأخيراً إلا الوجه الأسود الثاني للحضارة الغربية ، هذه الحضارة التي تقذف علينا كل عيوبها ومساوئها ، وهل هذه الصورة السوداء إلا دليل على أن هذه الحضارة سوداء في أرضها أيضاً كما هي سوداء في أرضنا ؟

أولم يلاحظ مفكر والغرب أن الإستعمار في الخارج متصل اوثق الاتصال بنظام الاستثمار في الداخل ؟ إنه يكفي في البرهان على ذلك أن نعرف أن الغرب يملك العلم والصناعة ، وأنه يستطيع بفضلها أن يعيش أجمل حياة في أرضه ، وأن نرى مع ذلك أنه يرضى لأكثرية سكانه أن تعيش فقيرة محرومة ، وأن يسخر كل قوته لجعل الاستثمار قانوناً يفرضه على الداخل والخارج ، ليضمن للأقلية الرأسمالية أرباحاً متزايدة ، ولو على حساب الظلم والإضطهاد ، والقتل والتشريد والإفناء ، وحرمان الشعوب من ابسط حقوقها في الحياة ؟ !

إن هذا كله ليدل على انحطاط القيم الروحية في العالم الغربي ، وفشل حضارته في انشاء عالم إنساني سعيد هادئ . وعلى ذلك فانه لايجوز بأية حال أن يعتبر العرب أن كل مهمتهم الحالية إنما تنحصر في اللحاق بركب العالم الغربي ، ولو أن لديه اشياء ثمينة لابد من اقتباسها عنه ، وتأثره فيها ، كالصناعة والعلم . وإذا نحن جعلنا همنا الأول أن نصيح مثله لم نزد العالم إلا اضطراباً على اضطراب ، وصخباً على صخب ، وحروباً على حروب فلا بد إذن من البحث عن قيم جديدة ، إنسانية حقاً ، لتحول بين الإنسانية والفناء ، ولتنقذنا وتنقذ الغرب معاً من التردّي في الهاوية العميقة ، هاوية القضاء على الجنس البشري وإعدامه إعداماً نهائياً .

ومن العبث ولا شك ان نتهم الحضارة الغربية بكل مفاسدنا . وان نعتبرها مسؤولة عن تخلفنا . وأن نقول ان كل مصائبنا جاءت منها . بل لقد آن الأوان لأن نقف وجهاً لوجه أمام انفسنا ، وان نعتبر طغيان الغرب علينا نتيجة لتأخرنا ، وعقاباً على تخلفنا ، لا سبباً لها . وليكن الاستعمار الغربي قاسياً وفظيعاً ، وليكن ظالماً ووحشياً ، وليكن كل ما نريده أن نصفه به . ومع ذلك فان المستعمر يحتاج الى المستعمر ، وقوة الأولى إنما تتناسب مع ضعف الثاني ، ولو وجد المستعمر لدينا مناعة كافية لارتد عنا ، ولنفض يديه منا ، ولتركنا ننسج مصيرنا كما نريد . الا أنه وجدنا بغاثاً فاستنسر علينا ؛ ووجدنا متفرقين ، فاستفاد من تفرقنا ، ووجدنا جهلاء فتعالى بعلمه وصناعته علينا واستعمرنا . ولهذا كان علينا أن نعود إلى انفسنا مرتين نسألها في الأولى : كيف السبيل الى انقاذ وجودنا من براثن هذا الفاتك الغربي .. ونسألها في الثانية : كيف نشيع في الدنياقيماً انسانية جديدة ترتفع بالإنسانية الى أعلى مستوياته ، فتعلم الجاهل بدلا من ان تستثمره ، وتقوي الضعيف بدلا من ان تغلبه ؛ وتسعد البائس بدلا من ان تزيده بؤساً . فكأن موقفنا من الغرب الآن ، كموقف العرب يوم جاءتهم رسالة محمد .

— البقية على الصفحة ٧٧ —


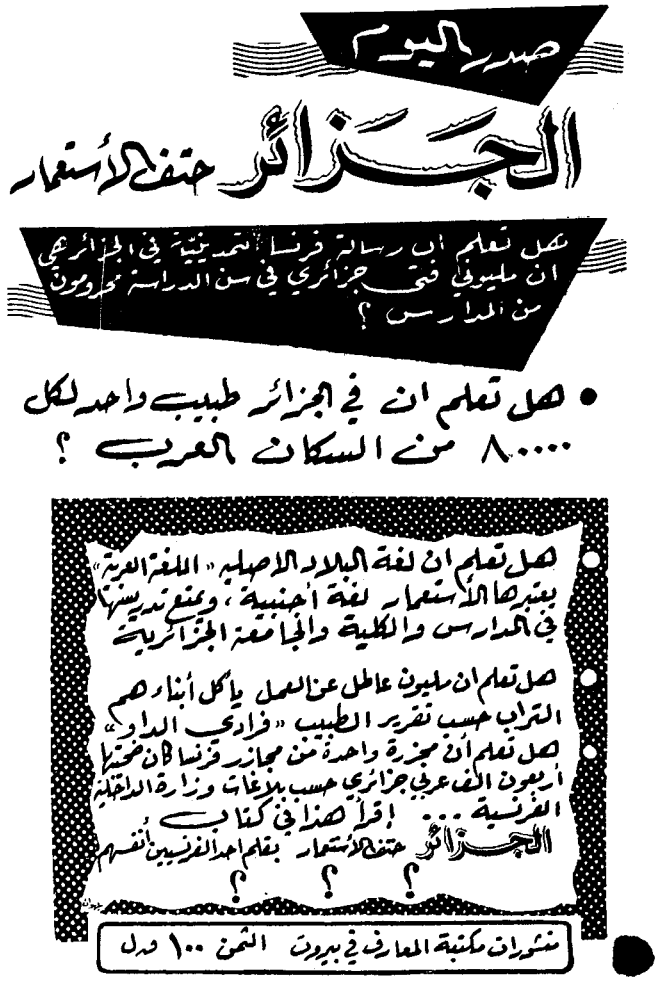

# قلق الشباب العربي المعاصر

– تتمة المنشور على الصفحة ٩ –

لقد كان العالم في جملة اجزائه اكبر حضارة وأعظم مدنيـــة من العرب ، ولكن تفسخه كان كبيراً ، وقيمه كانت منحطة ، ومعتقداته كانت وثنية مهلهلة . وكان الوضع العالمي في كل أرجاء الأرض ينتظر هـــذه القفزة الجديدة في القيم ، ليرتفع بها الى المستوى الإنساني الرفيع . فكان محمد . وكانت هذه القيم الأخلاقية التي جاء بها الاسلام ، فرفع الإنسانية بهـــا أعظم رفعة .

* * *

ولنقل الآن : إننا نستطيع من كل ما قدمنا أن نخلص إلى النتائج التالية : إن الشباب العربي ، في الظرف الحاضر ، لشديد القلق. وهو كذلك لأنه يشعر أن أمته العربية متخلفة مادياً ومعنوياً عن الركب العالمي . غير أنه يشعر من اعماق نفسه أن الركب العالمي الذي يود اللحاق به متخلف أيضاً ، ولو أن تخلفه معنوي بالدرجة الأولى ، أو تخلف قيم ، وعلى ذلك فانه إذا اراد اتباع الغرب ، استطاع أن ينجو من نوع من التخلف ليقع فيما هو اشد منه ، فليست أزمته تقوم في مجرد الأنانية التي تحمله على أن لايكون دون الآخرين تقدماً ، ولكن أزمته الحقيقية هي أنه لايستطيع أن يشارك البشرية جمعاء في قلقها على مصيرها ، وخوفها على مستقبلها ، كما لايستطيع أن يسهم معها في تصييه من حمل اثقالها .

وهكذا نرى أن الشباب العربي ، إن كان قلقاً ، فقلقه ليس خاصاً به كعربي بالدرجة الأولى ، ولكن قلقه قلق الإنسان جملة ، أو قلق الإنسانية عامة ، ولو أن وضعه الخاص في هذه الإنسانية ، والآلام التي تقاسيها أمته ، مما يجعله أكثر حساسية بهذا القلق ، وأشد معاناة لأزمته . وشأنه في ذلك شأن محمد في أمته . لقد كان العرب في عهده متخلفين عن الركب الحضاري العالمي . ولكن الركب الحضاري كله كان يعاني أزمة تخلف كبير عن المثل الأعلى الإنساني . فلما فكر النبي العربي في وضع أمته ، وأراد انقاذها منه ، لم يفكر لها وحدها بل فكر في الإنسانية جمعاء ، ولم يكن لرسالته من معنى لو انهـــا كانت قومية ضعيفة ، لايشع خيرها على الناس جميعاً. فالمشكلة إذن ليست الآن في مجرد التفكير بمصير الأمة العربية ، بـــل المشكلة الحقيقية هي القفز من هذه المشكلة إلى المشكلة العامة ، ومن الواقع العربي إلى الواقع الإنساني . ومن سلم القيم المرفوع الآن ، إلى سلم القيم الذي يجب أن يرتفع .

ولاشك أن سوء فهم هذه المشكلة على حقيقتها هو الذي يعبث بالشاب العربي ، ويجعله قلقاً . ذلك أنها توضع في الغالب على صورة قديم وحديث ، أو على صورة شرق وغرب ، أوعلى صورة إيمان وإلحاد . فالقديم هو ماكان عندنا أو ماهو عندنا ، والحديث هو ماكان عند الغرب أو ماهو عندهم . والشرق هو المتخلف والغرب هو المتقدم، والإيمان هو الدين الذي صلح به أولنا ، والإلحاد هو كل ما يدين به الآخرون . فاذا بحثنا أو بحث الشاب العربي في مشكلته القومية، لم ينظر إليها في الغالب إلا من أفق ضيق، فاما تعصب لما عنده ، وإما تعصب لما عند الآخرين ، وإما عاد إلى شرقيته ، وإما سحر بالغربية ، وإما رجع إلى الإسلام، وإما تعلق وذاب فيما هو غيره . ولو استطاع أن يضع مشكلته القومية ، في إطارهـــا الإنساني البحت ، وارتفع من الأفق الضيق، إلى الأفق الواسع ، لوصل إلى تركيب عال يزيل كل هذه التناقضات ، ويحتفظ للإنسانية بكل مالديها من خير ، دون أن يفرط في شيء منه. وهل جاء الإسلام لينخفض عن مستوى القيم السائدة ، أو ليستبعد ماكان فيها من الخير ، أو ليقضي على ما فيها من الانحطاط ، ويرتفع بخيرها إلى القمم العليا ؟ وهل جاء محمد إلا ليتمم مكارم الأخلاق ؟

وعلى ذلك فان القلق الذي نعانيه أو تعانيه الإنسانية كلها، إنما هو قلق المخاض . وأكثر الأمم استعداداً لولادة سلم القيم الجديدة ، هي هذه الأمة التي تشعر أكثر من غيرهـــا بآلام الإنسانية ، وتعي الوجود الإنساني أكبر وعي . فهل تكون امتنا هي المدعوة إلى حمل الرسالة من جديد ؟ وما هي طبيعة هذه الرسالة ؟

* * *

لقد قلنا منذ قليل ، ان الأزمة التي نعانيها أزمة قيم ولن تنشىء القيم الجديدة الا فلسفة جديدة في القيم . وكل فلسفة في القيم ، إنما هي فلسفة روحية بالدرجة الأولى ، أي فلسفة تعلي الانسان على المادة ، وتجعله في المركز الأول من الاهتمام . وما الفلسفة التي تركز الاهتمام على المادة إلا مرحلة ، كانت مقاومة المادة فيها غالبة للإنسان ، قاهرة له . وأرادت هذه الفلسفة التركيز عليها بغية تجاوزها ، والانطلاق من أسرها . غير اننا الآن في عصر نفذت منه الروح الى كل هام من أسرار المادة ، وسيطرت عليها وأخضعتها لارادتها ، حتى لكأنها هامت في محتوى وعيها ، وضاعفت من ضيعة الإنسان . فلم يبق إذن

إلا ان نعود الى هذه الفلسفة الروحية، لنجمع ما تبعثر من الإنسان في المادة، ولنحرر الروح من كل أسر وقعت فيه .

ومن الطبيعي ان تكون هـذه الفلسفة الروحية ملأى بكل مكتسبـات الإنسانية ، حريصة عليها ، فهي لا تتنكر للدين ، ولا تحتقر العلم ، وتؤمن بالفكر الوضعي ، ولا تستطيع ان تتخلى عنه .

ولقد جاء زمن كانت الفلسفات الروحية فيه (كما يقول مونيه ) مجرد تبرير للوضع القائم ، في ظلمه، وطغيانه ، وانحطاطه ، ولم تكن الروح التي يشاد بها إلا رغبات ومطامع الأقلية السعيدة التي تتحكم في المجتمع وتقرر له مصيره . اما الآن فان هذه الفلسفة الروحية قد أصبحت اكثر وعياً لذاتها، وأصبحت «الروح»فيها، هي الإنسانية جمعاء ، وجملة القيم الرفيعة التي تدعى الإنسانية لتحقيقها في نفسها ، وعلى أرضها .

ولهذا لا بد لهذه الفلسفة من ان تكون فلسفة تحرير شامل تقول بالحرية السياسية لتؤمن التناسق الفعلي بين حقيقة النظام الديمقراطي وأشكاله الخارجية، أو بتعبير آخر لتضمن منع الخوف من كل استبداد سياسي ظاهر او مقنع ، وتقول بالحرية الفكرية ، لتضع حداً لهذا العقم الفكري المخيف الذي نعيش فيه منذ قرون عديدة ، وتقول بحرية الاعتقاد للقضاء على كل فكرة طائفية ، تحاول ان تمزق وحدة الوطن بتنافرها وتعاديها ، وتقول بالحرية الشخصية ، لتضمن إلقضاء النهائي على كل أثر من آثار المجتمعات البدائية ، التي تقتضي التجانس بين الأفراد ، وتعد كل خروج على المألوف جريمة منكرة . وتقول بالتقدمية الإشتراكية ، لتحرر هذه القوى المشلولة العقيمة التي أتى الفقر على حقيقة حياتها ، فلم يبق منها إلا صورة الحياة ؛ ولتقضي نهائياً على هذا الظلم الإجتماعي الخانق الذي يجعل الفقر وحده حظ المنتج العامل ، والغنى كله حظ العقيم العاطل ، ولتجلو عن الحقيقة الإنسانية هذا الصدأ الذي غشاها ؛ ومنع انبثاقها وتجليها ؛ وقبرها في جوف الحاجة إلى اللقمة ؛ وحال بينهـا وبين التطلع للانتاج والإبداع ؛ وتقول بالوحدة العربية لتضمن لهذه الأجزاء المبعثرة من الأرض العربية ان تطمئن إلى ان التنين الغربي لن يعود فيلتهمها ؛ ولتجعل من وحدة هذه الأمة سبيلا الى تفاعل أبنائها بعضهم ببعض ؛ وانطلاق امكانياتهم المتجمعة لخدمة قيم الرسالة الجديدة .

ولن نخشى خـلال ذلك كله ان نصطدم بالدين أو ان نتنكر له . فالعدو الحقيقي للدين هو هذا التخلف الذي نعانيه ؛ وهذه العبوديات الثقيلة التي نحتملها وخاصة منهـا ما كان عبودية للقمة او للمادة . وليس اقتل للدين من وضع يصطدم فيه دوماً بضرورات الدنيا ؛ فلا يجد الإنسان مناصاً من إخماد صوت الدين ؛ وتناسي نداء الإله ؛ وجعل الارض فوق السماء .

وكذلك نحن نخشى خلال ذلك أن نصير الى الإلحاد . فالإلحاد الحقيقي لا يكون بانكار وجود الإله فحسب ، ولكنه يكون بانكار كل ما تعنيه كلمة الإله من قيم . الإلحـاد هو الكفر بالقيم ، وإيثار النفس على الآخرية ، واهتمام المرء بمنفعته قبل كل شيء ، الإلحاد هو الحياة في الأرض ، دون اي اهتمام بغير ما في هذه الأرض ، وبالحاضر دون اي اهتمام بالمستقبل ، وهو الاستغراق في المادة، دون اي تفكير بالروح . ولن يكون ملحداً هذا الذي يتطلع الى مستقبل امته ، ومستقبل الإنسانية جمعاء ، ويؤمن بأنه مدعو لحمل رسالتها ، والارتقاء بقيمها ، وتجسيد الخير في الأرض . فاذا كان هنالك من حضارة ملحدة فعلا ، كافرة حقاً ، فانها هي هذه الحضارة التي نعيشها ، والتي ترغمنا ابداً على التفكير في اللقمة والرغيف ، ولا تتيح لنا أن نرى وجه الله إلا قليلا .

* * *

ولنتساءل الآن عن هذه الأمة المدعوة إلى حمل هذه الرسالة الإنسانية الجديدة ، أم أن هناك من هو أجدر بحملها ، وأكفأ لتحقيقها ؟

إن من الواضح أن الإنسانية تنتظر منذ قرون كثيرة ، قيام هذه الرسالة . ولكن من العبث أن ننتظرها في غير أوانها . إذ ما دام العلم قليلا ، والصناعة ضعيفة والإنتاج محدوداً ، والوعي الشعبي ضيقاً ، فان الأمل بتحرير الإنسانية يظل هزيلا جداً . أما منذ القرن التاسع عشر والعشرين خاصة ، فلقد نمت الحضارة الإنسانية بالدرجة التي تتيح كل الأماني ، وتعد بكل الآمال ، ولم يعد هناك أي مبرر لفقدان هذه الرسالة التي نتحدث عنها . ولهذا نجد هنا وهناك وفي كل مكان فلسفات جديدة تحاول أن تكتب للإنسان مصيره ، وأن تعين له وسائله إلى هذا المصير .

وقد ظنت الماركسية يوماً ما أنها هي هذه الفلسفة ، التي تحمل هذه الرسالة ، وازداد هذا الظن قوة عندما قامت دولة كبيرة على أساس هذه الفلسفة . إلا اننا مازال نرى الإنسان في كل مكان مستعبداً للمادة ، مرهقاً بأعباء حيوانيته ، مقيد الروح بحاجات الجسم ، آخذاً قويه بتلابيب ضعيفه ، ليستثمره ويمتص حشاشة فؤاده . وفضلا عن ذلك فان هذه الفلسفة لم تحل دون قيام حرب عالمية كبرى ذهبت بجزء كبير جداً من ثروات الإنسانية المادية والمعنوية ، ولا يلاحظ من جديد أنها ستحول فعلا دون حرب عالمية ثالثة لا ينتظر منها إلا فناء الإنسانية ودمارها .

أما الفلسفات الأخرى التي تظهر في انكلترا وفي فرنسا خاصة ، كالاشتراكية ، والوجودية ، والشخصانية ، فلا يبدو أنها ستلقى أي نجاح حقيقي يطمئن الإنسانية على مصيرها .

وإذا عدنا إلى الشعوب ، وتركنا الفلسفات جانباً ، راعنا من جديد أن شعبين كبيرين كالصين والهند ، يعيشان الآن كما كانا يعيشان من قبل في اكتفاء ذاتي ، وانطواء داخلي، لا يصدر منهما أي إشعاع يبدد شيئاً من الظلمات من طريق الإنسانية

وهكذا نرى أن العرب هم الآن الأمة الوحيدة التي ينتظر منها أن تحمل هذه الرسالة. ولا شك أن هذا القلق الذي يعصف بشبابها، وهذه الآلام الكبيرة التي تحز في نفسها وهذه المصائب القاسية التي تحتملها ، مما يحملنا على الظن بأنها هي الأمة المعدة لحمل الرسالة الجديدة ، لاسيما وأن في تاريخها ما يشعر بأن

كل الرسالات جاءت من ارضها .

ولنشر إلى أن العرب في ذلك لن يكونوا إلا « وسيلة » لخدمة الإنسانية ، فاذا هم استطاعوا أن يكونوا هذه الوسيلة فلا شك أن الإنسانية ستكون مدينة لهم مرة اخرى .

أما إذا لم يستطيعوا أكثر من انقاذ انفسهم بهذه الرسالة الجديدة فحسبهم أنهم سيساعدون الإنسانية على أن تنقذ نفسها من التردي المحقق ، والموت المحتوم .

* * *

إن القلق الذي نعانيه تقدم كبير بالنسبة لذلك الإطمئنان الأبله الذي كنا فيه . وهو برهان على أننا بدأنا نشعر بوجود مشكلة في حياتنا ، بعد أن كنا غافلين عنها . وكنا نظن أن المشكلة كلها ، هي في تخلفنا وتقدم الآخرين ، فاذا بنا نرى المشكلتين مشكلة واحدة ، وإذا هي كلها في اختلال القيم الإنسانية ، وانحطاطها عن المستوى الذي يستحقه الإنسان ، ويستطيع الارتقاء عليه . ولا شك أن حسن طرح المشكلة يعادل نصف حلها . فليس يجب أن نخشى من القلق ، بل يجب أن نخشى من فقدانه ، لأنه إن فقد لم يدل إلا على البلاهة أو على الموت . وعلى ذلك فالقلق الذي نحن فيه دليل على حيوية الشعب ، وتفتحه العقلي ، وهو قلق خصب مادام سبيلا إلى البحث عن الحلول الصالحة ولن يصبح مَرَضياً الا اذا تجمدنا فيه ، وبقينا عليه . ولعل في هذا الحديث ماينبه المفكرين والسياسيين والعاملين في الحقل الوطني والإجتماعي إلى ضرورة العمل لابلاغ القلق غايته ، من حيث ايجاد الحل الذي يقضي على ازمتنا القومية ، ويمتعنا بحياة غنية من التقدم والإطمئنان والسعادة .

**حافظ الجمالي**

---

(*) محاضرة القيت بدعوة من هيئة المحاضرات في كلية المقاصد الإسلامية ببيروت .

يجري السحب القادم في مدينة حلب بتاريخ ٤/٧/ ١٩٥٦